

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ



مركز الدراسات النخطية والمعمارية CPAS

”النظم الادارية في المدينة الاسلامية“

بتلمس

الدكتور / عبد الرحمن فهمي

مقدمة:

لابأس ان تكون نقطة البداية في محاضرة اليوم هي تعريف المدينة الاسلامية فالمدينة كما يصورها ابن خلدون في مقدمة هي غاية العمران . ومعنى آخر هو انتقال مجتمع من المجتمعات من حالة البداءة والتنقل الى حياة الاستقرار والسلام والرقة ، فادا قلنا ان مجتمعنا قد تبدل فهو مجتمع قد تحضر أى اخذ بأسباب الحضارة واستقر في حياته المدنية لذلك كان لفظ "الحضارة" مرادفا للغرض "المدن" وكلاهما في اللغات الاوروبية مشتق من لفظ واحد من اللاتينية CIVIS اي ساكن BARBARIAN اي المواطن الروماني المتمدين عكس البربرى CIVITAS اي المدينة ومنها ومن هذا الاصول اللاتيني CIVILIZATION اشتقت الكلمة الانجليزية CULTURE وهي انساب التعبيرات عن الحضارة بصفة عامة بدلا من كلمة زحفا سريعا في كثير من المؤلفات الامريكية اليوم ، ذلك لأن التعبير الاخير يعني الارتفاع في الميادين الثقافية بينما الحضارة اعم واشمل لأنها تعبير عن الارتفاع بالمنجزات المادية او الثقافية معا ولن يتطرق لهذه المنجزات ان تقوم الا بانتقال الجماعات الى مرحلة الاستقرار في المدينة وهي غاية العمران البشري .

ويمكن ان نقسم حديثنا في هذا الموضوع الخاص " بالنظم الادارية في المدينة الاسلامية " تقسيما اصطلاحيا تسهيلا للالام به ليس الا .

- اولا : عن النظم الادارية في المدينة في صدر الاسلام .
- ثانيا : عن هذه النظم في العصر العباسي وهو عصر الدوليات المستقلة .
- ثالثا : في العصر المغولي وحتى العصر العثماني .

رابعا : المدينة الاسلامية تحت وطأة الاستعمار

اولا : النظم الادارية في المدينة في صدر الاسلام :

والواقع انه لا يمكن ان نتصور مجتمعا متقدمينا بدون قيام نظام دستوري اى دون تشريع يحدد علاقات هذا المجتمع وعباداته ومعاملاته والمعرفة ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد هاجر الى يثرب لنشر عقيدة التوحيد والدعوة الاسلامية وكانت هجرته هذه بداية الانتقال الى المجتمع الاسلامي من مرحلة بدوية قبلية قرشية الى مرحلة مدنية اسلامية مستقلة ، ولم تكن يثرب التي هاجر اليها اكثرا من حى صغير يقع بالقرب من جبل احد الى الشرق من العين الزرقاء وفي يثرب احزاب غير متجانسة الا من الناحية الاثنولوجية والا من الناحية العقائدية فنجح الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الرئيس الاعلى لهذه الجماعة في ايجاد التجانس المطلوب بين سكان يثرب التي أصبحت بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم تسمى بالمدينة المنورة ويتمثل هذا التجانس في الرابطة الاسرية *faimilia* عن طريق المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار من المسلمين عن طريق معاهدة حسن الجوار مع اليهود يثرب بحيث أصبح المسلمون سواسية كاسنان المشط لافضل فرد على الآخر الا بالتفويت ودرجة سبقة في الاسلام ولاشك ان هذه المؤاخاة كانت ارفع السبل لايجاد القيم الاساسية لتوحيد مجتمع المدينة في ظل نظرة انسانية هي نظرة "العدالة" التي تجلت روحها الشاملة في الحضارة الاسلامية وتمثلت جوانبها في الادارة والتشريع والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية على السواء .

وتبد وقوة الدولة اعظم ما تبد وبسيطرة الشريعة الاسلامية على كل من الحاكم والمحكوم فلو سرقت فاطمة بنت محمد ، لقطعت يديها .

ولا يشفع احد عند الرئيس الاعلى للمدينة في حد من حدود الله مهما كان مركز

الشفيع والا اغصب بهذمه الشفاعة رسول الله الذى استن سنة واضحة انما يقول "هلك الذين من قبلكم لانهم اذا كان قد سرق فيهم الغنى تركوه ، و اذا سرق فيهم الضعيف اقاموا عليه الحد" ، فهنا روعة التطبيق للشريعة الاسلامية فى ادارة المدينة المنورة فى كتاب الله وسنة رسول الله قوله عملا واقرارا – وعلى هذا الاساس تأكيد العدل وتأكدت المحبة والايثار وتأكد حب الجهاد فى سبيل الله شجاع عليه رسول الله ليفوز المؤمن باحدى الحسينيين النصر او الشهادة ومن استشهد فهو حى يرزق عند ربها .

وكان الخروج عن قواعد الشريعة كتابا وسنة يعتبر ضلالا مهما كان مصدره لأن الله تعالى امر المؤمنين بقوله " وما تاكم الرسول فخذوه وما نهاك عن فانتهوا " ولاشك ان العمل من الجهاد فى سبيل الله شجاع عليه الرسول بحيث جعل المتقن لعمل من الاعمال حبيب الرحمن ، وكان الرسول (ص) يسلم على العاملين ويقول هذه يد يحبها الله ورسوله .

ولعل اهم ما ظهر بميدان العمل بالمدينة المنورة عمارة مسجد الرسول وسط المدينة وكان يعمل فيه الرسول بنفسه بنقل المونه والحجارة حتى كان يغير صدره كما كان يقول ابن كثير في السيرة ، والمسجد في حد ذاته يعبر بناوئه عن بساطة الاسلام في صحته المكشوف وظاهراته الافقية ، فهو يخلو من السمو تحقيقا لمبدأ المساواة في المجتمع الاسلامي فلا يرتفع فوق سطحه اي عمارة اخرى والمهم ان الهيكل الاداري في المدينة المنورة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كشجرة ذات اصول وفروع اصلها القرآن والسنة وفرعوها شرح الاصول والاجتهاد والقياس والاستحسان مع مراعاة المصالح المرسلة لمصلحة الامة الاسلامية .

و اذا كان الرسول (ص) اول رئيس اعلى للجامعة الاسلامية فان المدينة المنورة اول مدينة في الاسلام ، وكان على الرئيس الاعلى ان يراعى من الناحية الدينية والادارية وكل التواхи الاقتصادية والاجتماعية شئون مجتمع المدينة فكان الرسول (ص) ينزل بنفسه الى

الاسواق لكي يفتش على البائع حتى لو وجد طعاما غير صالح يخفيه صاحبة عن العرض نهائمه وبوحة وجزرة وكان يكفي ان يقرر "من غشنا فليس منا" كي يرجع الفشاشون في الاسواق من هذا القول الذي يزكيهم من جماعة المسلمين .

وكان للرسول له كتابه الذين يسجلون اصل التشريع الاسلامي وهو اصل القرآن الكريم وله مترجمون الذين يتفاهمون مع غيرهم من اليهود بالعبرية ، وله صحابته الذين كان يستشيرهم في المسائل الهامة وخاصة عند الدفاع عن المدينة المنورة وليس ان يكون المستشار ذات نسب او حسب فسلیمان الفارسی اشار على الرسول بتحصين المدينة بالخندق في غزوة الاحزاب واخذ الرسول برايه ، وكان الرسول يشرف على اقامة الحدود وتوقيع الجزاءات عند الضرورة ومحاسبة العمال اي ولاة الاقاليم يعاونه كبار الصحابة الذين يجتمعون في هيئة محكمين في المسجد الذي اصبح مدرسة اسلامية لصنع الرجال والقيادات ومجلس للقضاء ومستشفى لتمريض الجروح .

وفي عهد الخلفاء الراشدين صارت الامور الادارية على نفس المنهج على اساس من القرآن والسنة وغير انه في عهد عمر بن الخطاب حدث نقله هامه في مجتمع المدينة المنورة اذ خرجت جماعات المسلمين هذه المرة لتضع يدها على مراكز الحضارات القديمة في الشرق الادنى فاستولت على الشام والعراق ومصر وفارس من ممتلكات الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية في غرب اسيا وفي شمال افريقيا وفي عهد عمر وضع اول بذور المدن الاسلامية خارج الجزيرة العربية وانشئت مدينة البصرة سنة ٤١ھ ومدينة الكوفة سنة ١٧ھ كما انشئت الفسطاط اولى المدن الاسلامية في مصر سنة ٢١ھ .

ويعتبر عمر بن الخطاب اول من وضع اسس النظام الاداري في المدن الاسلامية من الناحية العملية ويعبو المؤرخون عن ذلك بقولهم "ان عمر اول من دون الدوابين "على حد قول الجهمي وابن خلدون فهذا ديوان الجندي تسجل فيه اسماء المحاربين وتحدد فيه اعطياتهم وهذا ديوان الخراج والجبائية لتدرين ما يريد الى بيت المال من فضل بمثابة

وزارة المالية و مع ذلك كان عمر هو المسئول عن تصرفات ولاته بمحاسبتهم ويسألهم من اين لك هذا حرصا على مصالح المسلمين بل ان عمر لم يكن يسمح بان يفتح احد نافذة بدارة بالفسطاط اذا كانت في مستوى النظر حتى لا يكشف عورات المسلمين من جيرانه كما حدث بالنسبة لدار خارجة بن حداقة اول من فكر في بناء غرفة بالطابق الثاني فلم يسمح له بفتح كوه (نافذة) تمكّنه من التطلع منها وهو فوق سريره على المنازل المجاورة (عبد الرحمن فهمي : القاهرة تاريخها وفنونها ص ٢٢) بل كان عمر يطلب من المهندسين والمشرفين على عمارة مدينة الفسطاط بان يعرضوا الحوائط ويطيلو السمك ويقاربوا بين العوارض الخشبية حفاظا على مтанه البناء . (عبد الرحمن فهمي : القاهرة ص ٢٢) .

وكان الهيكل الاداري العام للمدينة الاسلامية في عهد الخلفاء الامويين يتالف من الوالى - الذى ينوب عن الخليفة في حكم الولاية الاسلامية كلها من المدينة العاصمة . اصحاب الشرطة - وعرفوا بالشرطة لأنهم اشرطوا انفسهم بعلامات خاصة يعرفون بها . صاحب الخراج - وهو المسئول عن جميع انواع الخراج النقدية والعينية وتوريدها الى بيت المال لينفق منها الوالى على الجيش وبناء الجسور ومد الطرق وبناء المساجد وتعميرها . القاضى - وهو المسئول عن النظر في المظالم في المدينة .

وفي العصر الاموى زادت اعداد المدن الاسلامية بانشاء القironan التي امر معاوية قائدة عقبة بن نافع بانشائها سنه ٥٥ هـ وهي مدينة ذات موقع استراتيجي تصرف القائد المسلم فاختار بنفسه في ضوء خبرته الحربية وقد دافع مع عربون العاص عن الاستكبارية اثناء المحاولات العديدة التي قام بها البيزنطيون الروم بغية استعادتها من العرب لذلك رأى عقبة ان تكون القironan مدينة بحرية لا بحرية فبعد بها عن ساحل البحر المتوسط بتونس الحالية .

ولم تكن ادارة المدينة لتففل الطابع العام في انشاء المدن الاسلامية من حيث توسط المسجد ودار الامارة واحتاطه بالأسواق وخطط القبائل ومساكنهم مع احاطة المدينة

ببور حصين يقيها هجمات الاعداء ، ولكن الادارة هنا ذات طابع عسكري واضح فاصبحت القپروان مركز العمليات الحربية لجيش الفتح في شمال افريقيا تخرج منها الجيوش تلو الاخرى متوجهة الى الشرب حتى انتهت من فتح شمال افريقيا كله واتجهت الى اسبانيا لتنشر فيه دعوة الاسلام .

وفي عهد الامويين تم تعریب الدواوین على يد عبد الملك ابن مروان وابناءه وآخواته فلم يعد يسمح في المدينة الاسلامية بتعيين موظف عام لا يعرف العربية خاصة بعد مضي ثلاثة ارباع قرن على قيام الدولة الاسلامية ، اما دار الضرب المختصة بسك النقود فهى تشكل في المدينة الاسلامية اعظم مؤسساتها وتعاونها دار للعيار تختص باصدار الصنج وضبط الموازين والمكاييل وفي سنة ٢٤٧هـ تم تعریب النقود وصدرت الاوامر من الخليفة المركزية في دمشق الى جميع المدن الاسلامية بعدم التعامل بغير السكة العربية وعلى الولاء واصحاب الشرطة مراقبة ذلك في الاسواق بكل دقة واصدرت دار العيار صنجا خاصا من قوارير اي من الزجاج كى لاستحيل الى زيادة او نقصان لتعديل عليها النقود العربية قبل خروجها من دار الضرب ، وكان يمكن بواسطتها ضبط الدنانير الذهبية والدراهم الفضية التي لا تتماشى مع الوزن الشرعي الذي يحدده بيت المال ،اما مسؤولية المنشئات المعمارية في دولة الامويين سواء كانت عمائر دينية او مدنية او حربية فانها كانت تقع على عاتق الخليفة المركزية في دمشق او الادارة المحلية في المدن الاسلامية في حالة نقص الكفاية المالية في بيت المال المدينة اذ لم يكن طابع الادارة العربية في العصر الاموى الاستغلال وجمع المال كما يقول "قلهوزن" في كتابه عن "الدولة العربية" بقدر ما كان الهدف هو مراعاة المصالح المرسلة الى الجماعات الاسلامية في دول الاسلام التي بلغت اقصى اتساعها في ذلك العصر من حدود الصين شرقا الى فرنسا الحالية والمحيط الاطلسي غربا .

وفي العصر الاموى نهضت اول المصانع الاسلامية لانتاج الخزف والزجاج والمعدن

والاثاث والسجاد والنسيج وغيرها من الصناعات الفنية ولم يكن الى المدينة ليسمح ان تتطور هذه خارج الاطار الاسلامي العام فاختفت المسحة المسيحية البيزنطية والمسحة الماجوسية الساسانية تقل تدريجيا لتفتح المجال للزخارف العربية النباتية والهندسية والخط العربي.

ثانياً : النظم الادارية للمدينة الاسلامية في العصر العباسي :

انتصر العباسيون على الامويين سنة ١٣٢ هـ ولم يجعلوا عاصمتهم في خراسان مركز ثورتهم ذلك لأن السلطة العربية وكان لابد من اختيار العاصمة في مدينة من المدن العربية ، ولم يكن من الممكن اتخاذ المدينة المنورة او مكة المكرمة او دمشق بالنسبة لولاء كل منها لغير العباسيين فأسسوا مدينة جديدة هي بغداد سنة ١٤٦ هـ واحاطوا أنفسهم فيها بانصارهم من الفرس.

فإذا كان الخليفة قريشاً عبيضاً عباسياً فقد أصبح الوزير فارسياً تحقيقاً للتعاون مع أشراف الفرس الذين لهم فضل كبير على الدعوة العباسية مثل البرامكة كما أن الاتجاه إلى تحويل الادارة في بغداد إلى الفرس فيه محاولة جادة لضرب القبلية العربية من القيسية واليمنية التي دوخت الامويين مما يشعرنا بان القبلية قد استفادت امكانيتها عسكرياً وادارياً بسقوط الدولة الاموية وهي الدولة العربية لحما ولما .

وقد ظهر منصب الوزير لأول مرة في التاريخ الاسلامي الاداري في بغداد على عهد الخليفة المنصور وقد ابنت ^{Saqrdej} سورديل فيما كتبه عن الوزارة العباسية في جزئين انه منصب يدين بوجوده في العالم الى العرب وقد اشارت مراجع عربية كثيرة منذ القرن ٤ هـ - ٥ الى هذه الحقيقة اي قبل سورديل بقرون عديدة كما نرى في كتاب الخراج لقد ادامة والوزراء للجمشيارى "والوزراء للصوى" وتحفة الامراء وتاريخ المؤذن للصابى وقوانين الوزارة "للموردى".

والذى يهمنا هنا هو ان هؤلاء الوزراء قد دفعوا بعلمية الانجاز المعماري والصناعى فى المدينة الاسلامية الى الامام كما نرى فيما فعله وزراء البرامكة فى بغداد وما فعله الوزراء الفاطميين فى مدينة القاهرة ، وينسب الى حفيده خالد بن برمك اد خال المصابيح فى المساجد اثناء شهر رمضان لاول مرة ومن اراد ان يتتوسع فى معرفة دور الوزراء فى مدينة بغداد فليرجع الى "حضارة الاسلام فى دار السلام" "لنخلة مدورة".

والى يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمى فى القاهرة تتسن انواع جديدة من المنسوجات كالعتابين البغدادى والسلقاطون وهما من ارقى انواع الاقمشة الاسلامية وكان قصر يعقوب بالقاهرة ينافس فى عمارته قصر الخليفة .

وفى وزارة الجرجائى فى عهد الظاهر لاعزاز دين الله تم ترميم قبة الصخرة ببيت المقدس وتتجدد فسيفسهاها على ايدى المهندسين والعمال المصريين ٤٢٦هـ واشهرهم عبد الله بن الحسين المزوق .

اما الوزير اليازرى فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى فقد شجع فن التصوير ويرى المcriزى فى خططه الكثير عن استقطابه لأشهر المصورين من بغداد كعزيز العراقى .

ويكفى ان نشير الى الوزير بدر الجمالى فى عهد المستنصر والى بنائه لجامع العطارين بالاسكندرية وجامع المقياس والجامع العتيق بأسنا ومشهد الجيوش او المرقب الحربى فوق المقطم واسوار القاهرة وابوابها الحجرية التى لا يزال قائم حتى اليوم .

ويتميز العصر العباسى بمشاركة الوزير للخليفة فى تسجيل اسمه على السكة والطراز فى المنسوجات وفي الكتابات التأسيسية على العمائر ولكن ما ثبت ان ظهر نوع من الصراع فى مدينة بغداد بين سلطة الخليفة وبين سلطة الوزير وهو صراع كان ينتهى غالبا بالقضاء على الوزير ومصادرة امواله وسجن اسرته .

وتدرك المنصب منذ عهد الخليفة الراضى سنة ٣٢٤هـ وحل محله منصب آخر هو

"امير الامراء" ، ولعل اخطر الصراعات على منصب الوزير ما حدث في اواخر عهد الفاطميين في القاهرة حين اشتد النزاع بين الطامعين في المنصب حتى احرق احدهم مدینة الفسطاط برمتها .

وقد انشأ الخلفاء العباسيون منذ عهد المهدى الى جانب منصب الوزارة مجموعة من الدواوين لادارة شئون المدينة ومن اهمها :

* ديوان الزمام فهو يشبة ديوان المحاسبة ومهملته جمع الضرائب من البلاد

* ديوان النظر او المكتبات : ومنها ما هو مختص بالجيش ويسمى ديوان الجيش ومنها ما يختص بالعمال اي الموظفين من حيث التolleyة او العزل ويسمى ديوان العمال وديوان الاعمال (للمنجزات من عمارة وطرق وجسور وقنوات) وديوان المال .

وغير ذلك ديوان البريد : الذي تسند اليه الطرق وتمهيدها ووضع علامات الطريق عند كل محطة من محطات البريد وكل بريد يمثل ١٢ ميل او ما يساوى اربع فراسخ اي نحو ٢٤ كيلومتر بين كل بريد وآخر .

وديوان الشرطة : ويتوالاه رئيس الشرطة وقائد هم وربما سمي "عامل الشرطة" ، والشرطة مكلفة بالمحافظة على الامن في الداخل لمنع وقوع الجرائم بالمدينة والقبض على الجناه وعمل التحريات اللازمة وتنفيذ العقوبة التي يحكم بها القضاء او اقامة الحدود وربما اسند الى صاحب الشرطة مهمة اعمال المحاسبين والمساهمة في اطفاء الحرائق والاسراف على الاوقاف والمساعدة على تحصيل الجزية واصدار الدنانير . وهي وظيفة ظهرت منذ عهد الخليفة على بن ابي طالب وكان يختار صاحب الشرطة من عليه القوم ذوى العصبة وعلى هذا النهج سار الامويون والعباسيون .

اما صاحب المظالم : فوظيفته مزاج من سطوة السلطنه ونصف القضاe ويختار صاحب المظالم من بين افاضل الناس واعلاهم مكانه ومهملته انصاف المظلوم من الظالم وهو يمضي ما يعجز

القضاء عن امضائه لأن سلطته كانت تفوق سلطة القاضي فله ان يفصل في الشكاوى ضد الموظفين العموميين وكان يعاقب بالجلد والسجن والقطع والموت وكان يحيط بمجلسه فقهاء وكتاب وعد ول .

اما المحاسب : فنشأت وظيفته بمسماها في عهد الخليفة العباسى المهدى ولم يكن منصب المحاسب قضائيا وانما وظيفته ولاية دينيه اساسها الامر بالمعروف والنهى عن المنكر (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر) . لذلك ليس صحيحا ما ذكره ديمومين من ان المحاسب استمرار لوظيفة " الاجرانوموس " اى عامل السوق *agaranomos* الذى عرفته الدولة البيزنطية في نظمها الادارية .

فالوظيفة اذن اسلامية خالصة في اساسها امر بها كتاب الله ولم تقتصر وظيفة المحاسب على الواجبات الخلقية السلوكية في المدينة بل تعدتها الى الواجبات العملية المادية بالنظر في المصالح العامة للمسلمين كأنضباط الشوارع في المدينة ومراعاة ادارة الحمامات وليس النساء للزى الشرعى ، والمحافظة على حقوق العبيد والبحث على الرفق بالحيوان واستيفاء الديون والمحافظة على صحة المواطنين كمنع الحطب والتبن من الاسواق وتکلیف اصحاب المنازل الآيلة للسقوط بهد منها وازالة بروز المصاطب امام الحوانیت في الاسواق ، وتنظیف المساجد وانارتھا وتعمیر الاراضی بالبناء ، ومراقبة المصانع والمدابع والمسابك والحاکة والاوزان والمکاییل والنقد وقد اوردت كل هذه المهام کتب الحسبة (خاصة نهاية الرتبة في احكام الحسبة للشیزری ، ونهاية الرتبة لابن الاخوه ، ومحبـد النعم للسبکی وغيرهم) ولم حق توقيع الجزء الفوري كالتعزیز والتوبیخ والتشہیر بلبس الطرطور المرقع بالخوف الملونه والودع والاجراس والطواف في شوارع المدينة بالمذنبین ويعاوـه في ذلك اصحاب الشرطة .

وهناك نقطة هامة يجب الاشارة اليها وهي ان العباسيين قد اختاروا موقع بغداد بكل دقة فاختاروه وسط المواصلات البرية والمائية ذلك لأن النشاط التجارى كان عاملا هاما

في هذا الاختيار وهذه نقطة جدية بالانتباه بالنسبة للتحول الاقتصادي في الوقت الذي نشطت فيه المعاملات في بغداد انحطت النهضة الاقتصادية في الفسطاط بعد ان امر المنصور بان تكون ادارة الولايات من ادارة المركزية كما اصدر اوامر برد م خليج امير المؤمنين في فم الخليج الذي يربط بين مدينة الفسطاط والبحر الاحمر عند القلزم (السويس الحالية) لتحويل النشاط التجاري البري الى الخليج العربي وبغداد ، و اذا بحثنا تخطيط بغداد نجد اهتماما واضحا بالاسواق من ناحية تنظيمها وتخصيص محلات متجانسة لها حسب انواعها والمنتجات الصناعية البغدادية وغير البغدادية ومن ثم ظهرت تنظيمات تعبّر عن تماسك وتعاون اهل الحرف والصناعات وصار يشار اليهم في بغداد بالاصناف (اصحاب المهن) (اهل الصنائع) وهي تعبيرات تشعرنا بطبيعة تنظيماتهم الادارية فقد اعتز اهل كل صنعة بصنعتهم وتعصبو لها تجاه غيرهم من فئات المجتمع وحتى تجاه الحرف الاخرى وفشت نسبة الافراد الى الصنعة او الحرف الى جانب النسبة الى المدينة نفسها وقد اعطانا الحريري في مقاماته فكرة واضحة عن وضع هؤلاء الحرفيين ومعاشهم ومركزهم الاجتماعي وتنظيمهم الادارى ويبدو انه استقر لكل حرف عرفها واصولها واصبح هذا العرف مقبولا لدى القاضى والمحاسب عند فض المشاكل المهنية التي تحدث من الافراد او بينهم وبين الدولة نفسها ، ويتدرج الفرد من مبتدئ الى صانع الى استاذ كما كان لكل حرفة زيها الخاص .

ويكون الصناع جمهور الصنف فهم الذين يفتحون حوانين خاصة بهم لممارسة الصنعة وعلى ايديهم يترب المبتدئون ، وكانت الحرف مفتوحة لافراد الشعب من الديانات المختلفة وتعتبر المهنة هي الرابطة الاساسية بين اصحابها فهم يتساندون ويتعاونون وللحرفة شيخ او رئيس تعرف به الحكومة وتخداره احيانا كمثل للحرفة وقد شمل تعاون اصحاب الحرف ضمان المستوى المقبول للمهنة والمستوى المقبول للاسعار وحماية اصحاب المهنة من التعدى .

وقد يقوم اصحاب الحرف بدورهم في اوقات الازمات لحماية اعضائهم وهناك اشارات الى وقوف المهنيين ضد السلطة الادارية لحماية الحرفيين من التعسف ومن امثلة ذلك ثورة صناع المنسوجات القطنية والحريرية في بغداد سنة ١٩٧٤ حين فرض البيهقيون ضريبة العشر على هذه المنسوجات ولم تهدأ الحال حتى الغيت الضريبة بعد اربعة ايام من الاضطرابات وغير تلك الثورات ما اشار اليها ابن الجوزي في المنظم وابن الاثير في الكامل والصابي في تاريخ الوزراء .

وكانت الصناعات تحت اشراف المحاسب مقطوعاً كان او معيناً ومهتمه مراقبة المؤسسات الصناعية في ظاهر المدينة اي في اطرافها فضلاً عن مراقبة المعاملات في الاسواق داخل المدينة ومراقبة مواكب الصناع والحرفيين اثناء الاحتفالات التي كانت تعتبر معرضًا موسمياً منتقلًا لاروع منتجاتهم .

وكان التعامل بين اهل المدينة يتم بالنقد مع التجار او وكلائهم من المواطنين او الاجانب وقد استخدم هؤلاء "السفاتيج" (جمع سفتقة) في معاملاتهم وهي حالات او شيكات مقبولة الدفع في البلاد والمدن الاخرى سواء في دار الاسلام او دار الحرب (بلاد غير المسلمين) ومن هذا المنطلق ظهرت المؤسسات المصرفية التي تقوم بدور البنوك في عصرنا الحاضر وانشر في مدينة بغداد وغيرها من المدن الاسلامية بيوت الجهابزة اي الصيارة الذين كان لهم دور كبير في تدعيم اقتصاديات المدينة خلال الازمات وقد اشتغل اهل الذمة في المدن الاسلامية بما كان يحرم الاسلام على المسلمين الاشتغال به كالربا واخذ الفائدة بينما كان المسلمين يعملون فقط في التجارة الحلال بالربح الحلال ويكتفى ان نلقى نظرة على ما اوردته الجاحظ في كتاب (البصر بالتجارة) والدمشقي في (الإشارة إلى محاسن التجارة) لنرى كيف شجع الفقهاء العمل بالتجارة وتيسيرها حفاظاً على مصالح المجتمع في المدن الاسلامية ، وذلك ظهرت طبقة متوسطة من التجار والرأسماليين قامت بدور هام في الثورة على السلطة الادارية في فترات التدخل السياسي وخاصة بعد

تسلط العناصر التركية على الخلاقة العباسية في بغداد وكما حدث أيضا خلال الماجاعة الفاطمية في القاهرة في عصر الخليفة المستنصر وكان ينضم إلى هذه الطبقة جماعات العامة من "العيارين" و"الشطار" وهم أهل الصنائع والحرف والباععه الذين كانوا يخرجون للقتال بتبنيّة شبه عسكرية ولهم عرفاء ونقباء وقادة ويرأسهم أمير أو قائد وقد تضررت في القرن ٤٤هـ - ١٠ اسواق المدن الإسلامية كثيراً من مثل هذه الحركات كما سنرى في العصر المملوكي بالقاهرة .

وما دمنا بقصد الحديث عن الادارة في المدينة في العصر العباسى فلابد ان نشير هنا الى ان الخلاقة العباسية قد ضعفت تماماً بعد قرون من قيامها ودخلت في عصر ثان يدعى بعصر نفوذ الاتراك من القواد الذين سيطروا على الخلفاء والوزراء والدعاوين بحيث أصبح القائد التركي هو المسيطر على شؤون المدينة العاصمة كلها وبالتالي كان يصدر الاوامر بتعيين قواد اتراء آخرين على المدن الإسلامية في الولايات العباسية وما بعث هؤلاء القواد ان استقلوا باقاليمهم .

وإذا كانت هذه الفترة تبدأ من سنة ٢٢٢هـ تعد فترة ضعف سياسي واداري فهي فترة هامة في تاريخ المدن الإسلامية ذلك لأن كل امير في اقليم مستقل حاول ان يجعل من عاصمته منافساً جديداً للعاصمة المركزية بغداد فاستقطب العلماء والفنانين إلى مدینة كما استقطب الصناع كما حدث بالنسبة للطاهريين والصفاريين والبوهيميين والسلجقة في سمرقند وخارى وغزنه والری وخراسان وكما حدث بالنسبة للفاطميين في المهدية بتونس والقاهرة في مصر كما حدث بالنسبة للامويين في قرطبة وللادرسة والمرابطين والموحدين في المغرب بفاس ومرakesh والرباط وقامت هذه المدن بدورها واستقلت بادارتها عن الخلاقة العباسية تماماً ولكن تلك النهضة المعمارية والصناعية في المدن الجديدة كانت ترتبط ارتباطاً عضوياً بشخصية مؤسسها في الدواليك المستقلة فهى مراكز قوية طالما بقي الحاكم قويابمؤسساته الادارية كلها .

ولكن لا تلبث ان تنهاي هذه المدن بمجرد القاء السلطة الادارية السيف من يدها

ثالثاً: فيما بعد الفزو المفروضي حتى العصر العثماني:

لاشك ان نشأة المدينة يقترن بقيام دولة من الدول فقد عرفنا كيف نشأت المدن الاسلامية منذ بداية حركة الجهاد الاسلامية خارج الجزيرة العربية في المشرق والمغرب كالبصرة ٤١هـ والكوفة ٤٢هـ والفسطاط ٤٥هـ والقيروان ٥٠هـ و بغداد ٤٦هـ و فاس ٤٧٥هـ و سلمان ٤٨١هـ والمهديّة ٣٠٥هـ و مراكش ٤٤٥هـ والرباط ٥٩٣هـ وكل هذه المدن كان لها نظامها الاداري الاسلامي الذي وجهها الى الابداع في مختلف ميادين الحضارة الاسلامية ولكن مالبثت ان تعرضت هذه المدن لغزوؤات صليبية وغير صليبية لعل اهمها الغزو التترى والمغولى بقيادة هولاكو الذي اكتسح امامه مراكز الحضارة في المدن الاسلامية في المشرق فخطمها وقتل الخليفة العباسى ببغداد ٢٥٨هـ / ٦٥٦م وقد بالمخاطبات والكتب العلمية في شهر دجنبر حتى تغير لون الماء من احبارها وشمل الرعب كافة المدن الاسلامية في الشام فاخذت تتسلط كاوراق الخريف امام المد المغولى في وقت كانت الادارة في المدن قد وصلت الى اسوء ما يمكن لابتعاد ولاتها عن الشريعة الاسلامية ولم يكن امام الصناع الذين جاءوا من بخارا و سمرقند و بلخ و بلاد فارس والعراق من سبيل غير الهرب والهجرة بفهم الى حيث الامن والسلامة ورغم العيش بالقاهرة في عهد البايات ليك الذين نجحوا في هزيمة المغول في عين جالوت الفاصلة سنة ٦٦٠م فائزى هوئاء الصناع والفنانون الحضارة الاسلامية في القاهرة كل الاذراء بقدر ما تسبب في مسئوليات للسلطة الادارية لرعاياه من صحبيهم من الائتمان والعجزه والغرباء وابناء السبيل فهى هجرات اشبة بما نسمع عنها اليوم في كمبوديا امام الغزو الفيتنامي او هجرات الفلسطينيين امام المذابح اليهود ية وهنا يأتي نظام الوقف ليحافظ على هوئاء المهاجرين من المسلمين ولم تكن زيادة الاوقاف في عصر المماليك للصرف من ريعها من باب المصادفة بل كان ضرورة اندفع كثير من الاغنياء اليها لرعاية هجرات المشارقة الى مدينة القاهرة والى جانب ذلك كانت ايرادات الاوقاف تغطي زيادة المنشئات المعمارية الدينية والدعائية بصفة خاصة ، تبع ذلك زيادة المؤسسات

الصناعية لتفطية احتياجات السكان الاصليين والمهاجرين على السواء فضلا عن الصرف على ما هو قائم من المساجد والمدارس الاسلامية عن طريق نظار الوقف الذين كان يتولى الواحد منهم رعاية العمائر المنوطة به فيعين الرواتب الملائمة والمشايخ والقراء والمعيدين والمدرسين والطلبة والآيتام كما يتولى ناظر الوقف ترميم وتنظيف وتعيين ارباب الخدمات لخدمة العمائر المخصصة لها ريع الوقف.

وتدرج الادارة المملوكية ليأتى على راسها السلطان المملوك فى عصر لم تعرف الوراثة فيه سبيلا لاقامة سلاطين المماليك على عروشهم بحيث أصبحت وظيفة بعض السلاطين لاتعد و تدفأة العرش الى ان يتسلمه متغلب اقوى ، فنحن امام عصر فيه مبدأ الغلبة لاقوى ثم يأتى من بعد السلطان فى الترتيب الادارى الخليفة بعد ان انتقلت الخلافة العباسية من العراق الى القاهرة فاصبح السلطان قسيم الخليفة ففى السلطة من لاول السلطة الزمنية وللثانى السلطة الروحية ، ثم تأتى طبقة الفقهاء ورجال الدين ولم يكن لهذه الطبقة اى مظهر كهنوتوس كما نرى عند القس فى الديانة المسيحية او الاخبار فى اليهودية لأن الاسلام لم يفرق بين الدين والدنيا اما طبقة ارباب السيف فهم المشتغلون بالحرب فى الدولة المملوكية من الامراء الارقاء الذين كان السلاطين يشترونهم ثم يحررونهم فيصبح هؤلاء بدورهم امراء طامعين فى السلطة اما طبقة اصحاب المهن فهم التجار والحرفيون يتجمعون فى اسواق خاصة بهم فى احياء القاهرة وقد اشار المقريزى فى خططه الى كثير منهم واخذنا نسمع عن الحريرى والعياجى والخراط والخيمى والدهان والرصاص والفحارى والزجاج والززاد والمسقاء والسنكرى والسيوفى و الصائغ والصفار والبناء والجصاس والحائك والكفتى والمجلد والمذهب والشاد وغيرهم .

وهناك طبقة اصحاب الدواين وهم كتاب المكوس واستخلاصها ومحاسبة الفلاحين على المحاصيل الزراعية وكانوا يقيمون بمعاقبة من يقصر فى اداء ما يفرض عليه وكان مرجع الدواين الامراء فرجعوا الى مخدوميهم من الامراء وقد جانب كثير من الدواين الاستقامة وبعد و

عن اتباع الشريعة حتى انبرى السيكى فى كتابه عن الحسبة المسمى معيد النعم ومبعد النقم
انبرى يذكر لنا بعض الامثلة عن فساد الديوان بقوله :

”فإذا رأيت ديواناً أو غيره يخرج من بيته بعد أن امتلاء باطنه بالحرام وهو لا يلبس الحرام
وجلس على الحرام وفتح الدواة الحرام واحفظ يده الأقلام للحرام ثم عاقد بالحرام « أفاليس حقا
إذا رأيته بعد زمن يسير مضرروا بالحقارع ويطاف به في الأسواق ويجب علىه ” . وكان يقوم
على إدارة المدن الساحلية والموانئ أمير الشغور يرعى شؤون الشغور فيراقب سير
العلاقات التجارية مع الدول الأخرى .

وال مهم ان التركيب الطبقى للمالك بمدينة القاهرة كان من شأنه ان يبعث على
القتال في الطرق بين حين وآخر ، مما اضطر الصناع والتجار إلى غلق اسواقهم ومصانعهم
حرصا على سلامتهم وحفظها على ممتلكاتهم . ولكن الغريب ان مدينة القاهرة قد استطاعت
رغم ذلك بفضل ثرواتها المالية من ضرائب ومكوس التجارة العالمية التي تمر من مصر إلى أوروبا
وفضل إثراء مجتمعها بتلك الهجرات الزائرة أمام جحافل المغول استطاعت ان تمدنا بصناعات
دقيقة فضلا عن العمائر الشاهقة ولكن حدث في سنة ٥٩٢٢ هـ / ١٨٧٥ م ان وضع العثمانيون
ايديهم على المدن المملوكية بالشام ومصر في عهد السلطان سليم وكان أول عمل قام به
العثمانيون هو جمع الصناع والفنانين والمهندسين من المدن العربية وارسلهم إلى
استنبول كما يذكر ابن ابياس في بدائع الزهور . وهكذا احاطت ديناميكية الابداع في
ميادين العمارة والصناعات الفنية في المدن الإسلامية التي لم يكن هم الباشا او الوالي
العثماني وهو نائب السلطان فيها غير جمع المال قبل ان يأتيه قرار العزل يعاونه في ذلك
الاستغلال جنود وكتخدا او وكيله وخازنadar وترجمان ورئيس ديوان وهو لاء يشكلون هيئه
مكتب الباشا الذين يحصلون له على العوائد والمكوس والحلوان من ارباب المناصب والجمارك

والحق ان التنظيم الاداري في المدن العربية تحت الحكم العثماني يمكن الوقوف
عليه بدقة من شرح حسين افندى الرزمانجى الذى ظهر منشورا ومحقا سنة ١٩٣٦ م والى
جانب الوالى عين القاضى كنائى للسلطان في الاحكام الشرعية يحضر كل سنة من استنبول

وله ديوان خصوصى ومترجمون ، والى جانب القاضى اربعة من رجال الفتوى يقومون بالتدريس فى المساجد ويعلمون الناس دينهم ورتب السلطان العثمانى من مال الوقف اعطيات لھؤلاء وغيرهم من علماء الاوھر .

رابعاً : المدينة الاسلامية تحت وطأة الاستعمار :

فى مطلع القرن ١٩ (١٩٢ هـ) منيت المدن الاسلامية بانواع مختلفة من المستعمرين ومدن المشرق فيما وراء النهر وقعت تحت السيطرة الروسية ومدن الشام ولبنان والجزائر والمغرب تحت السيطرة الفرنسية ومدن العراق وفلسطين . ومصر تحت الاستعمار البريطانى وكانت ادارة هذه المدن تتم عن طريق المندوب السامى او المعتمد البريطانى او القنصل الفرنسى او الحكام الشيوعيين ولم يكن هدف المستعمرين جميعاً غير قتل حركة الابداع فى ميادين العمارة والفنون الاسلامية وتمت لهم السيطرة على هذه المجالات بعد وضع ايديهم على نظام التعليم من حيث اللغة والمنهج ولو لا تمسك جماعات المسلمين بالقرى بحفظ كتاب الله لما بقية العربية نفسها ببعض مدن المغرب والجزائر لازالت تعانى حتى اليوم مشكلة التعریب والعوده الى اللغة العربية بعد فرنستها ، وكل ما بقى للمدن فى عهد الاستعمار بعض الحرف والصناعات الهزيلة اما الطراز المعماري الاسلامي فاخذ يتقدّر ليفسح المجال امام الطرز المعمارية والتخطيطات الاجنبية المستوردة كما امتلاءت اسواق المدن بالصناعات الاجنبية بعد ان حرص المستعمرون على احتكار استيراد المواد الخام فقدت الصناعات المحلية معين انتاجها ، اما تنظيم اهل الحرف من حيث الشيخ او معلم الحرفة الذى يمثلها امام السلطة الادارية كما يمثلها فى المناسبات والمواسم والاعياد ويتعاون معه الاستاذ او الاسطى او المعلم او الصناع والمبدئين ، غير ان رقابة المستعمرين لاهل الحرف والصناعات قد ازدادت مما عطل حركة الانتاج وقلل من كفالة المنتجين وانصرف كثير من التلاميذ الحرفيين عن صناعة اسرهم التقليدية ومن اراد التوسيع فى ذلك فليرجع الى

بيير ء عن النقابات فى مصر فى القرن التاسع عشر
Baer; "Egyptian Guilds in Modern Times".

والى مكتبته الياس عبد قدسى عن الحرف الدمشقية فى مؤتمر المستشرقين السادس فمى

ليدن ١٨٨٣م

والله_____ التوفيق

الاستاذ الدكتور / عبد الرحمن فهمي محمد

القاهرة فى ٢ من رمضان ١٤٠٠هـ

الموافق ١٥ يوليه ١٩٨٠م